يا مغير الأحوال

بدأت الأشياء التي تذكر، بالفقر بالانقراض تدريجياً، واستمر زحف مظاهر الغنى على حساب دخله المحدود، وكان ذلك يمثل مشكلة له، فكان يحلُّ مشكلته بالاقتراض من جديد.

وضعت الزوجة يدها على قلبها وهي ترقب الأمر.

نظر

إلى إناء الطعام الذي جاءت به إليه. كان صحناً قديماً تأثرت جوانبه بكدمات السقوط المتكررة، ومع أنه نظيف، إلا أنه لم يكن جديداً يفتح نفس الآكل فيه.

قال لزوجته:

- أتعرفين..؟؟

- ماذا؟

- لوددت أن ينكسر هذا الصحن، أو يضيع أو يسرق!! المهم أن يختفي عن عيني.. لقد مللته، ومللت رؤيته، ومللت الأكل فيه، الطعام لم يعد له فيه طعم ومذاق.

نظرت إليه بتعجب وقالت:

- ولكنه يسدّ الحال.

- هذا يذكرني بالفقر... يشعرني أني لا زلت فقيراً محتاجاً.

قالت ضاحكة:

- لا داعي للنظر إليه، كُل وأنت مغمض العينين؟

- أنا لا أمزح.

- وماذا تريدني أن أعمل.. هل جئتني بصحن جديد ورفضت أن أضع الطعام فيه؟؟

- أعرف أن لدينا غيره.

- واحد فقط.. للمناسبات (وأضافت) يحمينا الله به من ألسنة المنتقدين، ونظرات الفضوليين.

- أحضريه من فضلك؟

- سوف أحضره.. لكن إذا جاءك ضيف سوف ترى أن الحكمة كانت في الحفاظ عليه.

بان عليه الضيق والملل، وقال بتأفف:

- كل هذا من أجل صحن، وقليل من الملاعق والشوكات... ماذا سوف يكون رأيك لو.. (وتوقف قليلاً).

قالت بتعجب واندهاش:

- لو.. لو ماذا؟

- لو أخبرتك عن عزمي بتبديل السيارة !!

- تبديل السيارة؟؟ هكذا مرة واحدة. ماذا جرى لك.. هل وجدت كنزاً؟

- لا بالطبع ... ولكن..

- ولكن ماذا ؟

- هذه السيارة غدت قديمة... قديمة أستحي والله من ركوبها، أريد سيارة لا ترتبط بالفقر، ولا تدل عليه، ولا تذكر به.

- رجعنا لموضوع الفقر.

- نعم...

- ولكنها تفي بحاجاتك.. توصلك إلى عملك وإلى السوق ومشاويرك الخاصة.. جزاها الله ألف خير.

- لكني مللت منها.. لأنها تجعلني أبدو فقيراً... وأنا لا أحب ذلك ولا أريده.

- الفقر عندك عقدة .. عقدة نقص..

- قولي ما شئت. لكن المظهر مهم.. مهم جداً..

- المظهر مثل (الشيك)، لا قيمة له إن لم يكن له رصيد...

- كلامك فلسفي .. وأنا لا أحب الفلسفة.

- لا... وأزيدك من الشعر بيت..

- ماذا؟

- إذا سارعت إلى التظاهر بالغنى وأنت هذه حالك فمعنى ذلك أنك ستكون فقيراً طول عمرك؟

- قولي! إلا أن يشاء الله.

- أستغفر الله... ستكون فقيراً طول عمرك إلاَّ أن يشاء الله. (وأردفت بلهجة ناصحة) لأن كل إيراد عندنا سيكون سداداً لشيء كمالي. والكماليات مثل الماء المالح لا تروي من العطش.

بدا كلامها منطقياً، وهو لا يحب المنطق، معقولاً، وهو يتكلم بعاطفته، ولذا لم يستمع لما تقول، وأصرَّ على أن فكرته هي الأصح، وانتهى إلى قرار بأن يتظاهر بالغنى ليكون غنياً، أو على الأقل ليعيش كالأغنياء.

ودخل في نفق طويل من أنواع التقسيط الذي كان مريحاً في البداية، لكنه بالغ وأسرف في هذه التقسيطات، فهو لا يفكر بالمبلغ الإجمالي، ولا فترات السداد الطويلة، كل ما يفكر به القسط الذي يؤخذ من الراتب، وهو يعدُّ قليلاً في البداية، ولكن هذا القليل كان يشتعل مثل حرائق الغابات ويضيع راتبه.. في غمرة فرحته بالحصول على ما يريد.

وراح يتضايق من كل شيء يذكره بالفقر، فأصبح عندما يشتري شياءه الخاصة أو أغراض البيت المختلفة فإن أهم شيء لديه؛ هو الماركة التجارية التي تشهد له بالذوق الرفيع والمستوى المتميز.

حتى هداياه للأقارب والأصدقاء شملها هذا التغيير، فلم يعد يقدم ما يؤدي الواجب، في أضيق نطاق ممكن، بل شعر أن هذا المجال يكشف للناس فيه عن ذوقه وحسن اختياره.

بدأت الأشياء التي تذكره بالفقر بالانقراض تدريجياً، واستمر زحف مظاهر الغنى على حساب دخله المحدود، وكان ذلك يمثل مشكلة له، فكان يحلُّ مشكلته بالاقتراض من جديد.

ووضعت الزوجة يدها على قلبها وهي تراقب الأمر، والرجل لا يسمع حقاً ولا باطلاً.. وحين أكثرت عليه وألحَّت بأن يمدَّ قدمه على قدر لحافه، قال لها ساخراً:

- عجيبة!!

- عجيبة.. كيف؟

- كنت أتوقع منك وأنت امرأة تحبين المظاهر أن تفرحي بكل جديد آتي به إلى البيت.

- بل أنا أحزن...؛ لأن هذه المظهرية ستقتلنا بغير سلاح، أصبح راتبك لا طعم له.. لأنه يذهب في الأقساط المختلفة.. حتى صاحب البقالة يتشكك من قدرتك على دفع المشتريات منه لأنك منذ شهرين لم تسدد له شيئاً، أصبح يتلكأ في إحضار ما نطلب منه.

قاطعها قائلاً:

- هذه ليست مشكلة، هذا اليوم سأتدبر الأمر وأحضر له ما يريد.

- هذا جرس إنذار.. عليك ألا تضع أصابعك في آذانك لتمنع نفسك من أن تسمعه، لأن هذا ليس هو الحل.

- قلتُ لك سأتدبر الأمر..

- اليوم تتدبر الأمر.. وغداً لا تستطيع...؛ لأن صاحب البقالة غير مكلف أن يكدَّ علينا.

كان كلامها منطقياً جداً، ومع أنه لا يحب المنطقية لكن ضربات الواقع بدأت تتجه نحو رأسه فيشعر بألمها، ولا يستطيع أن يتناساها.

وما هي إلاَّ أيام؛ وإذا بأول أزمة تواجهه، فحين دخل محل البقالة لأخذ بعض الحاجات، قال له صاحبها بكل أدب ولطف:

- يا أبو مشعل.. حسابك لم يسدد لشهرين.. (ثم أضاف بما يشبه الاعتذار).

- أنا عارف أن الذي عندك قريب. لكن أردت أن أذكرك.. ومثلك يعرف.. وأعلم أن ما لنا في هذه البقالة إلاَّ التعب..

قال أبو مشعل:

- ما يصير إلاَّ خير.. لو كنت طلبت المبلغ قبل أسبوع كان أعطيتك.. لأنه كان عندي.. أما الآن.. فأنا ما عندي سيولة.

- أنت مغنيك الله.. ما يتعبك مثل هذا المبلغ المتواضع؟!

كان لا بدَّ أن يتهرب بلطف، فإذا به يقول ضاحكاً:

- هل تصدق؟؟ أننا نحن الذين يقال عنا تجار يأتي وقت ما عندنا قيمة بنزين السيارة.. مشكلتنا أننا لا نجعل الريال يرتاح أبداً.. الراحة بالنسبة له موت..

سكت صاحب البقالة على مضض، فهو يعرف أن صاحبه ليس صادقاً كل الصدق، ولكنه مع ذلك لم يرد أن يخسر زبوناً متميزاً. وعميلاً من عملاء المحل.

ولملم أبو مشعل حاجاته من المحل، ثم وضعها أمام صاحب البقالة الذي حسب ثمنها، وسجل القيمة في دفتر المبيعات، ثم خرج بها وفي الطريق كانت الخواطر تنثال على ذهنه."آه لو علم أنه ليس عندي شيء.. حتى ولا ثمن هذه الحاجات ماذا كان سيفعل؟؟ هل سيظل يعطيني على الحساب"؟

وحين وصل إلى المنزل كان هناك أكثر من اتصال من محصلي الديون، كل واحد يسأله سؤالاً محرجاً، ويدعوه أن يبدأ في سداد مستحقاته قبل الآخرين. وهو يرد بلطف ويعد خيراً، لكي لا تطفو على السطح مشكلة الضائقة التي يعيشها.

وسكتت الأصوات على مضض، وعلى وعدٍ جازم منه أنه سيبقي في رصيده المبالغ الكافية لتلك الأقساط. لكن المشكلة لم تنته بسكوت هؤلاء، فقد مرَّ عليه صباح اليوم التالي في مكتبه أحد المحصلين، وقبل أن يفتح فمه بكلمة، رجاه أبو مشعل أن يسكت مقابل أن يعطيه كل ما يريد، وقال بكثير من الترجي والانفعال:

- أسترنا يا رجل... الله يستر عليك.. ماذا تريد؟ حقك سوف تأخذه.. ولكن بدون إزعاج وضوضاء.. بدون فضائح إذا سمحت.

وأخذه إلى مكتب بعيد وأغلق عليهما الباب.. وقال له:

- أنا الآن مثل ما ترى!

- يعني ماذا؟!

- هذا الشهر ما عندي شيء..

- لكنك ملتزم بالسداد، وأنت لا تريد أن تسدد؟!

- أنا لا أستطيع الآن.. أنا والله فقير!

- فقير..

- إي والله العظيم..

- وهذه السيارة (الكشخة)، وهذا الهندام الراقي و... و..

- هذي والله مظاهر.. مجرد مظاهر.. والله لا تدل على شيء.

نظر إليه باستغراب وقال في تحدٍّ:

- أنا مهنتي كما تعلم محصِّل ديون.. يعني أعرف صاحبي تماماً، وأعرف كل الحيل والألاعيب التي عادة ما يعملها أمثالك.

قبَّل أبو مشعل رأسه وقال:

- هذه المرة من أجلي.. من أجلي.. الله يرضى عليك.. استرها معي.. الله يستر عليك.

شعر المحصِّل بغير قليل من الحرج، وبخاصة أن هذا أول تأجيل يطلبه منه، فخرج بعد أن أخذ وعداً قاطعاً أنه لن يطلب منه التأجيل مرة ثانية.

وما إن خرج حتى عاد أبو مشعل إلى مكتبه مواصلاً عمله الاعتيادي، وعندما رأى انصراف كل واحد منهم إلى عمله، حمد الله أن أحداً لم يفطن إليه، وحين عاد إلى منزله سقط على الأريكة الكبيرة في الصالة، رمى بغترته وعقاله على أقرب منضدة، ونادى بصوت مرتفع لم تتعود عليه زوجته:

- الماء من فضلك... كأس ماء بارد..

وجاءت به إليه.. جاءت تحمل كأساً من الكرستال الفاخر تُحليه زخارف ذهبية فائقة الرقة والجمال. وقبل أن يشربه.. نظر إليه، قال لها باندهاش:

- زينب؟!

- نعم يا (أبو مشعل)..

- ارفعي هذا الكأس..

- للضيوف.

- بل لا أريد أحداً أن يرى أي مظهر للغنى عندي.. كل الكماليات والزخرفيات الفاخرة اجمعيها للمستودع.. إنني لا أريدها.. لا أريدها الآن، أنا أبدو كاذباً إذا قلت ليس عندي شيء، ليس لدي ما أملك.. أنا عليَّ ديون.. عليَّ ديون.. ولا أحد يصدق أنني مفلس، وعندي كل هذه المظاهر الفارهة.. لا أحد

يصدق أنني لا أملك شيئاً.. حتى سيارتي سأبيعها، وأسدد بثمنها بعض الأقساط، وأشتري سيارة معقولة...

وراحت تنظر إليه متعجبة من تحوله المفاجئ، إذن لقد اقتربت السكين من العنق!! بالأمس القريب رفض كل شيء يدل على الفقر؛ لأنه يخجل أن يبدو فقيراً فيُحتقر، واليوم يرفض كل مظاهر للغنى خوفاً من مطالبة الدائنين.

وجمعت زوجته كل شيء ثمين، فوضعته في الخزانة، وعادت له بأدوات طعام عادية، كادت أن ترسلها لجمعية البر، ومن بينها ذلك الصحن الذي أثار غضبه يوماً من الأيام، واليوم لا يرتاح إلا بالأكل فيه، لاحظها وهي تسبح في تخيلات بعيدة شعر بأنها عرفت ما في نفسه من أفكار.. قال لها:

- أنت تتحدثين مع نفسك.. تُرى ماذا كنت تقولين؟؟

ابتسمت له بحنان، وقالت بلطف بالغ:

- كنت أقول بيني وبين نفسي، سبحان مغيِّر الأحوال!!...

(وحين رأت تأثره وسحابة الحزن التي غطت وجهه أضافت):

- ستفرج بإذن الله يا (أبو مشعل).. ستفرج إن شاء الله..

ولم يستطع أن يتمالك نفسه فاغرورقت عيناه بالدمع وهو يردد: آمين.. آمين.. آمين..